الانتداب والوصاية والاستعمار

لعل الحركة الاستعمارية الحديثة ، التى أثرت فى النظام السياسى للعالم الذى نعيش فيه اليوم ، أبلغ التأثير ، هى أحق الظاهرات السياسية بأن ننعم النظر فيها ، وأن ندرسها دراسة عميقة . فليس فى ميدان السياسة العالمية اليوم حقيقة أظهر أو أبرز من ظاهرة الاستعمار ، التى بات من نتائجها أن قسمت الأرض إلى ثلاثة أقسام : بلاد مالكة ، وبلاد مملوكة ، وبلاد « مستقلة » ليست بمالكة ولا مملوكة . وربما أضيف إليها نوع رابع ، ليس بمالك ولا مملوك ولكنه فى حالة وسط . وهو على الأرجح من الأمثلة القليلة التى يمكن أن يقال فيها : « شر الأمور الوسط » .

معنى الاستعمار

وجدير بنا — ونحن فى سبيل دراسة هذه الظاهرة دراسة دقيقة — أن نبدأ بتعريفها ، وتحديد معناها . ولقد يخطر لأحدنا أن يبدأ دراسته لمعنى الاستعمار بمراجعة المعاجم أو كتب اللغة أو دوائر المعارف . ولكن الباحث فى هذه الأسفار لن يؤوب حتى بخفى حنين . فإن فى لسان العرب مثلا عشر صفحات فى مادة « عمر » ، ولم يرد فيها حتى كلمة الاستعمار . ودائرة المعارف البريطانية خالية من مادة إمبريالزم ، كمادة مستقلة ومن أية مادة أخرى فى هذا المعنى . وقد اشتقت الكلمة العربية فى شىء من التفاؤل من مادة « العمر » و « العمران » . ولم يدر بخلد الواضعين لهذه الكلمة أن سيجر هذا العمران المزعوم إلى شر أنواع التخريب والتدمير .

وبديهى أن من العبث أن نرجع إلى أسفار اللغة فى تعريف معنى الاستعمار ؛ لأن هذا لفظ اصطلاحى بحت ، وإن لم يكن من الألفاظ التى أصبح معناها مقررا محددا لدى جميع الكتاب . وقد استخدم هذا اللفظ بعض الكتاب فى

معنى يختلف عما أراده الآخر . وعلى سبيل المثال أسوق هنا مثلا مقتبسا من أحد الكتاب المتعصبين للاستعمار والمستعمرين . ولا بد لى أن أورد هذا النص باللغة الأصلية — لفائدة الذين يعرفون الانجليزية من القراء — قبل أن أحاول ترجمته للعربية :

« Imperialism is Nationalism transfigured by a light from the aspirations of universal humanity ». (١)

ومن الممكن أن نحاول ترجمته إلى العربية فيما يلى :

« الحركة الاستعمارية هى الحركة الوطنية تحولت صورتها بتأثير ضياء من أمانى البشرية العالمية . . . »

وعلى الرغم من أن هذه العبارة ليست واضحة المعنى تماما ، فإن من الممكن أن يستخلص منها القارئ بعض المعانى التى تدور بخلد فلاسفة الاستعمار ، الذين أخذوا على عاتقهم تفسير مظاهره وتبرير سياسته أمام الناس .

وإذا أراد القارئ أن يطالع اشارة أخرى إلى الاستعمار من كاتب فرنسى لبق رشيق فانى أسوق إليه العبارة الآتية المقتبسة من كتاب منتسكيو المشهور « روح القوانين » :

« Si j'avais à soutenir le droit que nous avons eu de rendre les nègres esclaves, voici ce que je dirais:

Les peuples d'Europe ayant exterminé ceux de l'Amérique, ils ont dû mettre en esclavage ceux de l'Afrique, pour s'en servir à défricher tant de terres.

...Ceux dont il s'agit sont noirs depuis les pieds jusqu'à la tête; et ils ont le nez si écrasé qu'il est presque impossible de les plaindre.

On ne peut se mettre dans l'idée que Dieu, qui est un être très sage, ait mis une âme, surtout une âme bonne, dans un corps tout noir ».

De l'Esprit des Lois, Livre XV, Chap. V.

---

(١) ص ١٣ من كتاب الأستاذ كرامب Cramb ، وعنوانه :
Origin and Destiny of Imperial Britain.

« إذا طلب منى أن أدافع عن حقنا المكتسب لاتخاذ الزنوج عبيداً ، فإنى أقول : إن شعوب أوربا ، بعد أن أفنت سكان أمريكا الأصليين ، لم تر بدًّا من أن تستعبد شعوب إفريقية لكى تستخدمها فى استغلال كل هذه الأقطار الفسيحة . والشعوب المذكورة ما هى إلا جماعات سوداء البشرة من أخمص القدم إلى قمة الرأس . وأنفها أفطس فطساً شنيعاً ، بحيث يكاد أن يكون من المستحيل أن نرثى لها . ولا يمكن للمرء أن يتصور أن الله سبحانه وتعالى ، وهو ذو الحكمة السامية ، قد وضع روحاً — وعلى الأخص روحاً طيبة — فى داخل جسم حالك السواد ... »

وفى وسعنا أن نذكر أمثلة أخرى لتعريف الاستعمار . ولكن القارئ سيجد هذه الأمثلة مختلفة اختلاف نزعات الكتاب ، وميلهم إلى تمجيده وتعظيمه ، أو للسخرية منه . وهى لذلك قليلة الفائدة من الوجهة العلمية الخالصة . ومن المفيد ألا نمر بعبارة منتسكيو هذه دون أن نشير إلى أنها ليست مبنية على مجرد السخرية . فإن الإشارة إلى أن الشعوب السوداء أو الحمراء لا روح لها قد كانت مظهراً من مظاهر الاستعمار الأوربى الحديث فى أوائل عهده . ورجال الدين أنفسهم لم يتورعوا عن مثل هذه النزعات . وقد كان قادة الدين فى مراحل الاستعمار الأولى بأمريكا الشمالية ، يشيرون إلى الهنود الحمر بأنهم من سلالة الشيطان . وكانوا يأمرون بالقضاء عليهم بمختلف الوسائل . وكان من هذه الوسائل أن تنشر بينهم الأمراض الجديدة التى ليس للأمريكيين الأصليين تلك المنعة منها التى اكتسبتها شعوب العالم القديم . ومن أهمها مرض الحصباء ، فكانوا يوصون بأن يمكَّنَ الهنود الأمريكيون من الاستيلاء على الأغطية (البطاطين) التى كان يتغطى بها المرضى المصابون بالحصباء . وكانوا يرون أن هذا الإجراء مما يتفق تماماً مع الدين .

وصفوة القول أننا فى حاجة لأن نعرِّف لفظ الاستعمار تعريفاً سهلاً واضحاً ، تيسيراً لدراستنا هذه ؛ فالاستعمار المقصود هنا هو العمل — أو مجموعة الأعمال — التى من شأنها السيطرة أو بسط النفوذ بواسطة دولة — أو جماعة منظمة من الناس — على مساحة من الأرض لم تكن تابعة لهم ، أو على سكان تلك الأرض ، أو على الأرض والسكان فى آن واحد . وهذا التعريف كاف — فيما يخيل لى —

لأن يشمل جميع أنواع الاستعمار ، قديمه وحديثه . وهو تعريف طويل ، ولكن ليس من السهل أن نأتى بتعريف واضح وموجز لظاهرة بعيدة عن البساطة والسهولة . . ولا بد لنا ، لكى نظهر ما اشتمل عليه هذا التعريف من المعانى ، أن نتبعه ببعض ملاحظات تفسره وتبرز منه بعض النواحى التى لا تبدو واضحة لأول وهلة وضوحاً كافياً .

١ — فالأعمال المشار إليها قد يكون منها استخدام القوة الحربية ، وهذا هو ما يحدث غالباً . وقد تحدث السيطرة على أرض بشرائها ، كما اشترت الولايات المتحدة ألسكا من روسيا ، أو تحدث بمزيج من استخدام القوة والشراء ، كما اشتريت جزر الفلبين من أسبانيا . أو قد تحدث السيطرة برضا الدولة المختصة ، كما حصلت بريطانيا على جزيرة قبرص من الدولة العثمانية ، فى مقابل خدمات خاصة .

٢ — وعبارة السيطرة أو بسط النفوذ ، تفيد أنه ليس من الضرورى ان يكون الاستعمار سافراً بحيث تتسلط الدولة على جميع مرافق البلاد ، بل يكفى أن يكون لها نفوذ سياسى ، تنفرد به دون سائر الدول ، وتقيد به حرية البلاد التى يبسط عليها ذلك النفوذ . وعلى سبيل المثال نذكر أن إيطاليا كان لها نفوذ سياسى على ألبانيا لغاية شهر أبريل سنة ١٩٣٩ ثم تسلطت عليها بعد ذلك تسلطاً تاما ، فانقلبت الحال من استعمار خفيف إلى استعمار ثقيل .

٣ — والنص على الدولة أو جماعة منظمة من الناس ، أريد به ان يشمل الاستعمار تلك الشركات التى تألفت فى العصور الحديثة ، مثل شركة الهند الشرقية ، وشركة إفريقية الشرقية ، وقامت بأعمال استعمارية عنيفة وتسلطت على مرافق البلاد الأجنبية دون أن يكون للدولة شأن فى ذلك سوى الإذن بتأليف الشركة .

٤ — والإشارة إلى أن التسلط قد يقع على الأرض فقط ، فهذا هو ما يحدث فى بلاد خالية من السكان ، أو فى حكم الخالية من السكان ، والمستعمرات اليونانية القديمة خير مثال لهذا النوع . ومن الأمثلة الحديثة استيلاء البريطانيين على جزيرة سانت هيلانه مثلا . وربما أمكننا بشىء من التجاوز أن نعد استيلاء الأوربيين على أمريكا الشمالية من هذا النوع ، على الرغم من وجود عدد قليل من السكان الأصليين .

أما أن السيطرة قد تقع على السكان دون الأرض ، فذلك يكون بترك الأرض ومرافقها لسكانها الأصليين ، فلا تغتصب منهم ولا يكلفون الجلاء عنها . ولإيضاح هذه الناحية نذكر مثالا وهو شرق إفريقية (مستعمرة كينيا مثلا) حيث يتسلط المستعمرون على الأرض والسكان . وأما غرب أفريقية ، فقد سمح للسكان الأصليين بالاحتفاظ بأرضهم . والسبب فى ذلك أن أرض شرق إفريقية المرتفعة تصلح لسكنى الأوربيين ، وأرض إفريقية الغربية منخفضة شديدة الحرارة لا تلائم سكنى المستعمرين .

٥ — وقد يبدو للقارئ أن يتساءل : هل يدخل فى هذا التعريف النفوذ الاقتصادى أو الثقافى ؟ وهل من الاستعمار مثلا أن تنشئ دولة أو رعاياها المعاهد العلمية ، أو أن ينشئوا شركات اقتصادية ؟ وهـذا أمر قد تختلف فيه الآراء . وقد تبلغ النعرة الوطنية ببعض الناس حد التطرف ، فيتوهمون أن قيام بلجيكا مثلا بانشاء شركة الترام أو شركة هليوبوليس ، أو دخول رأس المال الأجنبى فى أية صورة من الصور ، هو ضرب من الاستعمار ، حتى لو أدى إلى استخدام آلاف من الأيدى العاملة الوطنية . والصواب فى هذا وفى أمثاله أن المشروعات الثقافية والاقتصادية ليست من الاستعمار فى شىء ، ما لم تكن سبباً أو نتيجة لنفوذ سياسى . وقد استخدم رأس المال الأجنبى فى إنشاء السكك الحديدية فى الولايات المتحـدة وفى غيرها من الأقطار الأمريكية ، ومع ذلك لم يترتب عليه أى نفوذ سياسى ، كما أنه لم يكن نتيجة لأى تسلط سياسى أجنبى . وفرنسا كثيراً ما تنشئ المعاهد الثقافية فى بعض البـلاد الأمريكية دون أن يكون لهذا أى مظهر من مظاهر الاستعمار . أما إذا أرادت فرنسا أن تجعل من وجود بعثات علمية أو دينية ذريعة تتذرع بها لبسط سلطانها السياسى فى قطر من الأقطار ، أو لاحتلاله احتلالا عسكريا ، فهذا بالطبع عمل استعمارى ، ومثله كمثل الخير الذى يراد به شر . فالبعثات العلمية والمشروعات الاقتصادية ليست فى ذاتها عمـلا استعماريا ، ولـكن التدخل فى شئون القطر والتسلط على حكومته ، هو العمل الاستعمارى . ومن الواجب أن نفرق بين ظاهرة الاستعمار ، وبين الذرائع التى يتذرع بها للقيام بعمل استعمارى . وسيرى القارئ فيما يلى أن دول الاستعمار لن تعوزها الذرائع ، للقيـام بأعمالها الاستعمارية . بل إنها كثيراً ما تخلق هذه الذرائع وتوجدها من العدم .

الاستعمار القديم والحديث

من الواضح أن الاستعمار فى حدود التعريف الذى شرحناه ، ليس بالشى الجديد . وسواء أكان الغرض من الاستعمار احتلال أقطار جديدة خالية أو شبه خالية من السكان ، أو كان الغرض منه توسيع رقعة الدولة بالاستيلاء على أقطار عامرة بالسكان ، فاننا نجد أمثلة لهذين النوعين فى العهود البشرية القديمة . فقد أسس الفونيقيون مستعمرات مختلفة فى البحر الأبيض المتوسط ، وأنشأ اليونان مستعمرات عدة فى سواحل الأناضول والبحر الأسود ومضيق البسفور ، وفى صقلية وعلى سواحل فرنسا وأسبانيا . وهى تشبه فى كثير من الوجوه استعمار البريطانيين لأمريكا الشمالية : الولايات المتحدة وكندا ولأستراليا وزيلندة الجديدة .

وقد شهد العالم القديم إنشاء دول ضخمة مثل إمبراطورية بابل وإيران وآشور ، ومثل الدولة الرومانية العظيمة . وفى العصور الوسطى قامت الدولة العربية واتسعت رقعتها حتى شملت شطراً كبيراً من العالم القديم . كما أنشأ المغول دولا عدة فى شرق آسيا وغربها ، بل لقد بلغ نفوذهم قلب القارة الأوربية نفسها .

وهنالك فروق جوهرية بين ضروب الاستعمار القديم والحديث . وسنرى فيما يلى أن الطراز القديم ليس مقصوراً على العصور التاريخية القديمة والوسطى ، بل إن هذا الطراز ينطبق أيضاً فى العصور الحديثة على الدولة الضخمة القصيرة العمر التى أسسها نابليون بونابرت . وسنحاول فيما يلى إظهار تلك الفروق الأساسية بين الطرازين القديم والحديث .

١ — لم يكن الاستعمار فى العهود القديمة عملا تقوم به الدول ذات الحضارة المتقدمة وحدها ، بل كثيراً ما كان المستعمرون قبائل أو جماعات أقرب إلى الوحشية ، ولكن لهم من القوة الحربية والنظام ما مكنهم من السيطرة على أقاليم سكانها ذوو حضارة ممتازة . أما الدول الاستعمارية اليوم فإنها بوجه عام دول قد ضربت فى الحضارة بسهم ، وقد وجهت أعمالها الاستعمارية نحو بلاد فى حالة ضعف سياسى ، أو تأخر اقتصادى وثقافى وليس فى العالم اليوم شعوب

وحشية يخشى من غاراتها الاستعمارية كما حدث من اغارات المغول على دولة الصين والدولة الرومانية ، وعلى الدولة العربية . والعدوان الاستعمارى اليوم مقصور على الأقطار المتمدنة ، التى بلغت الشأو الأعلى فى التطور السياسى والمالى والحربى .

٢ — إن التوسع الاستعمارى الحديث قد شمل العالم كله ، ولم تعد المسافات الشاسعة ، ولا المحيطات الواسعة عائقاً يحول دون امتداد مخالب الاستعمار إلى قلب القارات ، وإلى الأقطار الواقعة وراء البحار . ولم يبق ركن من سطح الأرض فى مأمن من أن تناله يد الاستعمار . والفضل فى هذا يرجع إلى الكشف عن جميع الأقطار المجهولة ، وإلى سهولة الانتقال وسرعته بواسطة المخترعات الحديثة .

٣ — هذا وقد ترتب على هذا التوسع فى الميدان الاستعمارى ، أن أصبحت الدول الحديثة عبارة عن أقطار مبعثرة فى أركان الأرض ، لا كتلة مندمجة ، كما كانت الدول القديمة ؛ فأصبحنا نرى أن دولة مثل البرتغال تسيطر على مساحات واسعة فى إفريقية الشرقية والغربية ، وعلى مساحات أقل منها فى الهند وفى جزر الهند الشرقية . ومثل هذا يقال عن هولندة ، التى تسيطر على مساحات عظيمة فى آسيا وأمريكا . وهذه الظاهرة أكثر وضوحاً بالطبع فى الدول الاستعمارية الكبرى مثل بريطانيا وفرنسا .

أما الإمبراطوريات القديمة فكانت تسيطر على مساحة كبيرة من سطح الأرض ، ولكنها تشتمل على أجزاء متجاورة متلاصقة . والدولة الرومانية نفسها ، على الرغم من اشتمالها على أقاليم موزعة فى ثلاث قارات ، فانها كانت كلها مركزة حول البحر الأبيض المتوسط . والدولة الوحيدة فى عصرنا هذا التى تشبه الإمبراطوريات القديمة هى الدولة الروسية ، التى كان انتشارها دائماً بواسطة التوسع البرى .

٤ — ويلحق بهذه الظاهرة — تقارب وتجاور الأقطار — أن العناصر الجنسية التى كانت تتألف منها الدول القديمة كانت أكثر تجانساً وتشابها . ولذلك أمكن على مدى الزمن أن يحدث بينها نوع من الاتحاد والاندماج . فالدولة الرومانية على الرغم من اشتمالها على عناصر من الاسبان والجول (أجداد الفرنسيين) واليونان والعرب والبربر ، فانها كانت أكثر انسجاماً فى تكوينها

من أية دولة استعمارية نعرفها اليوم . وهذه الشعوب كلها فى نظر علم الأجناس تنتمى إلى سلالات بشرية ليس بينها اختلاف كبير . أما الإمبراطورية الحديثة فانها تشتمل على جميع الأجناس والألوان فى جميع مراتب الحضارة المختلفة .

٥ — ولعل أهم الفروق بين الاستعمار القديم والحديث ، هو أن التوسع القديم كان من عمل الحاكم الاعلى للدولة ، سواء أكان ملكا أم سلطاناً أم عاهلا أم قيصراً . وذلك من أجل زيادة مملكته ورعيته وتوسيع نطاق دولته ، فيعلو بذلك شأنه وشأن أسرته ، وشأن الطبقة الحاكمة التى تؤازره وتؤيده .

وكانت الشعوب التى تدخل تحت حكم العاهل الجديد تنضم بهذه الطريقة إلى مجموعة شعوب الإمبراطورية ، وتشاطرها حظها من الشقاء أو السعادة والنظام أو الفوضى ؛ فتغتبط إذا كان الحكم صالحاً ، وتتألم من مفاسده وشروره . ولم تكن هنالك تلك الروح القومية التى تجعل الناس يحسون أنهم تابعون لسلطان أجنبى .

فالدولة الرومانية أسستها روما . ولكنها لم تلبث أن اشترك فى أعمالها شعوب كثيرة غير سكان روما وإيطاليا . ولقد تولى حكم الدولة الرومانية قياصرة من أصل أسبانى فى بعض العهود ، دون أن يبدو للناس أن فى هذا الإجراء شذوذاً .

وكذلك الدولة العربية قد بسطت سلطانها على المشرق والمغرب . فكان للعرب فى بداية عهدها بعض المزايا على سائر الشعوب ، ولكن لم تلبث سائر العناصر أن اشتركت فى الحكم ، وفى نشر الثقافة العربية ، وفى جميع نواحى النشاط المختلفة .

أما الاستعمار الحديث فانه ليس من صنع ملك يريد أن يستكثر من الرعية ، بل الاستعمار اليوم من عمل الشعوب نفسها . فصاحب الشأن هو الشعب البريطانى أو الشعب الفرنسى أو الشعب الهولندى ؛ ولذلك كثيراً ما نسمع الواحد من أبناء تلك الشعوب يتحدث عن مستعمراته وممتلكاته فى شىء من الزهو والخيلاء .

ومن الظاهرات الغريبة فى الاستعمار الحديث أنه ليس من الضرورى أن تقوم به الدولة بنفسها ، بل كثيراً ما تولى الأفراد — فى صورة شركة — جميع أعمال الاستعمار ، كما ذكرنا من قبل ؛ فهم يعدون البعثات العسكرية والسفن والأسلحة اللازمة . ومع أن الغرض الاسمى لتأليف الشركة هو التجارة ، فإن أعمالها لا تقتصر على التجارة ، بل تتناول الفتح والغزو والحكم ، وانتزاع

الأراضى من سكانها ، وتوزيعها على الجنود والأنصار ، وجباية الضرائب ، والفصل فى القضايا . أى إن الشركة كانت دولة حاكمة مستعمرة بكل معانى الحكم وكل مظاهر الاستعمار .

وقد تناول الاستعمار بواسطة الشركات أقطاراً عظيمة الأهمية فى القرن السابع عشر ، منها الهند ، وجنوب إفريقية وجزر الهند الشرقية . وفى القرن التاسع عشر ألفت شركات عدة لاستعمار القارة الإفريقية ، وقد تم فعلا تسلط جماعات أوربية على مساحات واسعة من تلك القارة فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر . ونضرب على سبيل المثال الشركة التى ألفها سسل رودس ، واستولت على مساحة تزيد على ألف كيلومتر مربع . وشركة إفريقية الشرقية البريطانية ، التى لها « الفضل » فى الاستيلاء على شرق إفريقية وأوغنده . وحتى الملك ليوبولد نفسه لم يرد أن تتولى بلجيكا استعمار الكنجو ، بل أنشأ لذلك هيئة مستقلة سماها « الاتحاد الدولى للاستكشاف ونشر الحضارة فى الكنجو »

« Alliance Internationale pour l'exploration et la civilisation du Congo ».

كان قيام الشركات بهذه المشاريع الاستعمارية ، بدلا من أن تضطلع به الدولة نفسها ، عملا ملائماً للحكومات كل الملاءمة . فقد استطاعت أن تترك الأفراد يرتكبون ما يشاءون من الفظائع من أجل الفتح والاستيلاء ، ومهما اقترفوا من الإثم والوحشية ، فهم على كل حال أشخاص غير مسئولين . وتستطيع الحكومة فى النهاية أن تقضى بحل الشركة — بعد تمام الفتح والاستيلاء على المستعمرة — وتتولى إدارتها بنفسها بعد أن تمنح الشركة تعويضاً كريماً فى مقابل ما أنفقت من الجهد والمال . وهكذا تجىء الدولة فى صورة المنقذ المخلص للشعب الإفريقى من مخالب الشركة التى سمحت هى بإنشائها ، وبذلت لها غير قليل من المعونة والإرشاد .

وهكذا نرى أن من أهم ما تمتاز به الحركة الاستعمارية الجديدة أن الدولة لا تنهض بأعمال الاستعمار وحدها ، بل قد يسبقها أو يشاركها أفراد من الرعية والنظام الديمقراطى يجعل الشعب هو المرجع الأول فى سياسة الدولة ، ولذلك لابد للدول أن تحصل على تأييد شعبها فى سياستها الاستعمارية . ولابد لها من ربية العقلية الاستعمارية لدى جميع أفراد الشعب بقدر الإمكان .

أسباب الاستعمار

من أهم مزايا الاستعمار الحديث أن له كتّاباً وفلاسفة يدافعون عنه ويشرحون اغراضه ومراميه . أما الغزاة الفاتحون من القدماء ، فقلما رأوا ما يدعو لتبرير سياستهم وشرح الأسباب التى تدعوهم إلى التوسع والتسلط على أقطار جديدة ، اللهم إلا إذا استثنينا أحوالا قليلة كان فيها بعض الالتجاء إلى ذكر مبررات للغزو ، مثل الحروب الصليبية والدينية ، أما فيما عدا ذلك ، فقد كان العاهل العظيم يرى من حقه أن يغزو ويستولى ، استجابة لباعث لاحاجة به إلى تفسيره أو تبريره ؛ أما دعاة الاستعمار اليوم فلهم مذاهب وأقوال كثيرة :

١ — من الجائز أننا إذا فتشنا ضمائر الاستعماريين اليوم ، لم نجد أسبابا أو دوافع حقيقية تدعوهم إلى انتهاج الخطط الاستعمارية ؛ وإنما هو مجرد غريزة الاستيلاء وشهوة السيطرة ، تحرك الدول اليوم كما كانت تحرك الملوك القدماء . وهنالك عدد من الكتاب قد ذكروا مبررات للاستعمار لاتختلف كثيراً عما يذكره عاهل قديم مثل جنكيزخان ، لو أنه أتيح له أن يفسر أو يبرر سياسته الاستعمارية . فيقول اللورد كرزن مثلا : « إن الهند هى محور عظمتنا ، ومقياس مجدنا أو إخفاقنا . ولئن فقدنا الهند ليكونن هذا إيذاناً بغروب شمسنا » ويقول الكاتب الفرنسى لوابوليو : « إن فرسا لابد لها من أن تكون دولة إفريقية عظيمة ، وإلا فسرعان ما تغدو دولة أوربية من الدرجة الثانية . ولن يكون لها فى العالم شأن أعظم كثيراً مما لدولة مثل اليونان ورومانيا . »

فأصحاب هذا المذهب يرون أن الدولة لن يكون لها شأن أخطر إلا بالتوسع والاستعمار . ومثل هذا المذهب هو الذى اعتنقه النازيون بعد ذلك وابتكروا له كلمة جديدة فقالوا إن شعبهم لابد له من شىء اسمه Lebensraum أى مجال حيوى ، يشتمل على بلاده وبلاد غيره . وذهب الغلاة منهم إلى أن هذا المجال الحيوى ذو مرونة عظيمة بحيث يجوز أن يشمل العالم كله . « اليوم لنا ألمانيا . وغدا العالم كله ! » .

٢ — المذهب الاستعمارى الثانى — وله بعض الارتباط بهذا المذهب الأول — ينادى بأن الدولة صاحبة الشأن لها « رسالة عالمية مقدسة » لابدّ لها أن

تنشرها وتبثها بين الشعوب ، الا وهى رسالة المدنية والحضارة ، رسالة تقضى عليها بأن تبذل وتضحى لرفع مستوى الشعوب والأمم . وليس الفتح والغزو غاية بل وسيلة لإعلاء البشرية والسمو بها إلى آفاق العزة والكرامة والحرية .

وقد وصف أصحاب هذا المذهب تلك الرسالة التى تؤديها الشعوب الأوربية بأنها « عبء الجنس الأبيض » *The White Man's Burden* . وهو عبء ثقيل فادح ، ولكنه محبب إلى تلك النفوس الاستعمارية ، التى جعلت هدفها رفع شأن بنى الانسان فى كل مكان . . .

ونحن الذين نشاهد أعمال الاستعماريين عن كثب ، قد نسخر من هذه الأقوال أو نراها ضرباً من الهذيان أو من النفاق ؛ ولكن هنالك من غير شك أشخاص يدلون بهذه الأقوال عن عقيدة وإيمان ، ويتبعهم عدد غير قليل من الناس فى كل دولة استعمارية . وقد يكون عدد هؤلاء الناس كبيراً فى بعض البلاد صاحبة المستعمرات ، فتضطر إلى أن تلطف من حدة سياستها الاستعمارية .

٣ — بعد هذا الطراز الاستعمارى ، الذى ينشد ما يتوهمه المثل الأعلى ، يجىء طراز آخر من نوع لا شك أنه شرير ، وهو المذهب الذى ينادى بضرورة الاستيلاء على أقطار جديدة لسكنى رعاياه وإقامتهم ، مع أن فى تلك الأقطار سكانها الأصليين الذين استوطنوها منذ قرون عدة . إن الحكومات الاستعمارية التى من هذا الطراز تنادى بأن شعبها آخذ فى الازدياد ، وأنه لابد له من أراض جديدة يعيش فيها ، وأن جميع اعتبارات العدل والإنسانية لا قيمة لها أمام هذه الحاجة الملحة فى نظرهم .

ومن الغريب أن كثيراً من البسطاء القليلى العلم والتفكير ، فى بلاد عدة ، قد انخدعوا بهذه الدعاية وتوهموا أن مثل هذا التوسع أمر لا مفر منه ، وأن الدول التى تنشده لها العذر كله أو بعضه . وقد كثر التضليل فى هذا الموضوع حتى بات من الصعب على الناس أن يدركوا ما انطوت عليه تلك السياسة من الكذب والرياء .

حينما نسمع الدعاة الفاشستيين يتصايحون بأن الشعب الإيطالى لا بد له من المستعمرات لفسح المجال لسكانه المتزايدين ، يتوهم بعضنا — بل كثير منا — أنهم على صواب فيما يزعمون . ولكى يظهر بهتان هذه الدعاية يجب علينا أن نذكر :

أولا — أن هنالك شعوبا أخرى قد ضاقت بها بلادها ، فوجدوا فى العالم الجديد ميداناً للهجرة والاستقرار ، ذلك ما فعله الشعب الايرلندى ، والشعوب الاسكندناوية ، وشعوب البلقان ، وسوريا ، بل الشعب الايطالى نفسه . فقد استطاعت الملايين من أبناء هذه الشعوب النزوح إلى القارة الأمريكية وغيرها حيث يعيشون اليوم فى الجمهوريات الجديدة ويعملون فيها كعنصر نافع من رعاياها .

ثانياً — أن الدعاية الفاشية قد اشتدت فى طلب المستعمرات فى الوقت الذى أخذ فيه نمو السكان يتناقص فى إيطاليا نفسها بدرجة واضحة ملموسة .

فليس طلب المستعمرات إذن نتيجة لازدحام السكان فى إيطاليا ، لأن الهجرة إلى أمريكا قد خففت من ذلك الازدحام تخفيفاً واضحاً . ولكن الذى تبغيه الحكومة الاستعمارية هو أن يهاجر رعاياها إلى أقطار تملكها وتسيطر عليها ، مع أنها قد لا تتسع إلا لعدد محدود جداً من المهاجرين ، كما حدث فعلا فى ليبيا وبلاد الحبشة وأرتريا . فان العنصر الإيطالى المهاجر إلى مختلف المستعمرات الإفريقية تافه جداً إذا قورن بالجاليات الإيطالية الهائلة فى الولايات المتحدة والبرازيل والأرجنتين وغيرها من بلاد العالم الجديد .

فالمطالبة بمستعمرات للسكان المتزايدين لم يكن فى أى وقت من الأوقات سوى ضرب من النفاق السياسى وستار زائف للمطامع الاستعمارية ، التى تلتمس المبررات من أى نوع كانت .

٤ — الطراز الرابع من الاستعمار هو الذى نعرفه نحن سكان مصر خير المعرفة ؛ لأننا قد اضطررنا لأن نسمع صوته يتردد من حين لحين ، ذلك هو الطراز الحربى أو الدفاعى . وأصحاب هذا المذهب يرون أنه لابد لهم من التسلط على قطر أو عدد من الأقطار لضرورات عسكرية ، أو لأن الموقع الحربى لهذا الإقليم أو ذاك هو من الخطر ، بحيث لا بد لهم أن يضمنوا سلامته من كل عدوان .

وهذه الأقاليم ذات الأهمية العسكرية تنقسم إلى أنواع : فمنها الأقطار المتاخمة لحدود الدولة والتى ترى أنها لازمة للدفاع عن أرضها ، مثل التيرول الجنوبى ، الذى اقتطعته إيطاليا من بلاد النمسا لكى تحمى أرضها وندافع عنها من الناحية الشمالية . والأراضى الفنلندية التى استولت عليها روسيا لتحسين دفاعها عن الأقاليم الشمالية الغربية .

ومنها الجهات التى تعترض خطوط المواصلات الإمبراطورية ، مثل جبل طارق ومالطة وقناة السويس وعدن وسنغافورة ، وبنما بالنسبة للولايات المتحدة . فهذه الجهات كلها فى نظر الدول الاستعمارية لا بد من بسط النفوذ عليها لضمان سلامة المواصلات فى وقت الحرب . وعلى الرغم من أن هذه المواصلات قد تعطلت تماما فى أثناء الحرب العالمية الأولى والثانية ، فان هؤلاء الاستعماريين لا يزالون متمسكين بهذه الحجة .

وأخيراً هنالك أقطار لا علاقة لها بطرق المواصلات ، ولكنها يخشى عليها إذا وقعت فى أيد معادية أن تهدد تلك المواصلات ، مثل جزيرة قبرص وبعض البلاد الواقعة على الخليج الفارسى . فهذه كلها بعيدة عن الطرق البحرية ، ولكن التسلط عليها ضرورى لكى لاتقع فى أيد أخرى معادية .

٥ — الطراز الخامس والأخير من الاستعمار هو الذى أطلق عليه الاستعمار الاقتصادى ، أى طلب المستعمرات وحيازتها ، لكى تكون ميداناً لكسب المال وجمعه بمختلف الطرق بواسطة شركات رأسمالية . وكثير من الكتّاب يرى أن هذه الصبغة النفعية هى الغالبة على الحركة الاستعمارية الحديثة ، وأن رجال المال هم بوجه خاص الذين دفعوا الدول نحو التوسع الحديث ، وهم السبب الأول فى ذلك التسابق والتكالب على الاستعمار الذى شهدناه فى السبعين عاماً الماضية . إن هؤلاء الرجال لهم بالطبع نفوذ كبير فى الدولة ، وهم لا يتورعون عن استخدام هذا النفوذ لجمع الثروة وجنى الأرباح الطائلة . والمشروعات التى يمارسونها ، إما تجارية ، أى إنهم يجعلون من المستعمرات ميداناً لتصريف البضائع والسلع ، أو زراعية بانشاء مزارع واسعة لغلات الأقاليم الحارة مثل المطاط والقطن ، أومعدنية للبحث عن الثروة المعدنية واستغلالها .

هذه هى المذاهب الاستعمارية الرئيسية ، التى حاول دعاة الاستعمار أن يعبروا عنها ويشرحوها ويدعوا لها ويدافعوا عنها .

تكاليف الاستعمار

حاول الكاتب الشهير نورمان إنجل أن يثبت فى غير واحد من كتبه أن الاستعمار يكلف الدولة نفقات باهظة ، ولا تجنى من ورائه نفعاً يستحق الذكر ،

وأن الشعب يموت الاستعمار عما يدفعه من الضرائب ، وبما يفقده من أرواح أبنائه دون أن يكون للمستعمرات أقل أثر حقيقي في تحسين حالة الشعب المادية والأدبية . وقد أورد أرقاماً عدة عما تتكلفه الدولة من الأساطيل الحربية ومن وسائل الدفاع المختلفة ، وأثبت أن ما تجنيه من ربح مستعمراتها لا تتكافأ مع تلك النفقات . وقد تبع نورمان إنجل كتّاب كثيرون في رأيه هذا . والراجح أن القائمين بحكم الدول الاستعمارية لا يحاولون أن يجعلوا من الاستعمار مشروعا اقتصاديًا يجب أن تفي إيراداته بنفقاته ؛ لأن هنالك مطامع استعمارية أخرى ، غير مجرد الربح المادي . وهذا هو ما يدعونا إلى أن نظن أن الاستعمار شهوة في النفوس تدفع الحكومات إلى اتباع السياسة الاستعمارية سواء أكانت تلك السياسة مؤدية إلى مكسب أو خسارة مادية أو أدبية .

الاستعمار يفسر الحياة الدولية

كان لبعض الدول في الميدان الاستعماري مزية السبق ، لأنها دخلت الميدان قبل سواها ، ومن أجل ذلك نرى دولة مثل البرتغال لها مستعمرات عظيمة . ونرى هولندة تمتلك جزر الهند الشرقية كلها تقريبا . ونرى بريطانيا قد استطاعت أن تتسلط على الهند وأقطار أخرى ، قبل أن يتم تكوين ألمانيا وإيطاليا ثم جاءت الحركة الاستعمارية الحديثة في القرن التاسع عشر ، فاستولت بريطانيا وفرنسا على نصيب الأسد من القارة الإفريقية ، ودخلت ألمانيا وإيطاليا الميدان متأخرتين فلم تفوزا إلا بنصيب قليل نوعا بالنسبة لألمانيا ونصيب تافه بالنسبة لإيطاليا .

واشتد التنافس الاستعماري في العصور الحديثة اشتداداً هائلا ، وأخذت الدول يكيد بعضها لبعض ، وتتنافس في بناء الأساطيل واتخاذ الأهبة للحرب . ولئن حاول المؤرخون أن يجدوا اسباباً مختلفة للحرب العالمية الأولى والثانية ، فان من المستحيل أن ننسى أن من أهم تلك الأسباب التنافس الشديد في الميدان الاستعماري ، وحرص كل دولة كبيرة على أن تنال ما تدعوه « نصيبها » من التوسع والتملك . فقد جعلت السياسة الاستعمارية شهوة التملك أمراً مألوفا ، كأنه حق من الحقوق المقررة . واستباحت الدول الاستعمارية في سبيل تحقيق

شهوتها أن ترتكب الزور والإثم ، وتحنث بالأيمان ، وتحون العهود ؛ حتى انحطت الأخلاق الدولية إلى الدرك الأسفل ، وسرى السم فى العلاقات الدولية . فلم تعد الدول تتورع عن ارتكاب العدوان وعن التفنن فى الكذب والرياء .

وصفوة القول أن التكالب على الاستعمار والمستعمرات ، إن لم يكن السبب المباشر فى الحربين ، فانه على الأقل هو السبب فى إفساد العلاقات الدولية ، وفقدان الشعور الإنسانى ؛ وبذلك كان على الأقل سبباً غير مباشر فى هذه الحروب العالمية وفى النكبات الهائلة التى أنزلتها بجميع الشعوب .

وقد أخذت الدول الكبيرة صاحبة المستعمرات بعد ذلك تدافع عن قضيتها ، وتزعم أنها ليس لها مطامع استعمارية ولا تسعى وراء مغنم . وعند ما انهزم الأعداء فى الحرب العالمية الأولى والثانية ، تاركين أرضاً وديارا كانت فى حوزتهم ، رأت الدول المنتصرة ألا تضم تلك الأقطار والديار « ضمًا » على الطريقة الاستعمارية القديمة ، وقررت أن تجعل منها بلاداً تحت الانتداب فى المرة الأولى ، وتحت الوصاية فى المرة الثانية .

وسنحاول فى المقال التالى ان نوضح الخصائص الرئيسية لهذين النظامين .

محمد عوض محمد